من ذكرياتي مع الأدباء

توفيق الحكيم

سبق أن حثني ناشر نشيط على كتابة ذكرياتي فيما لم أنشره في كتابي «زهرة العمر» و«سجن العمر»، وأغراني بما حسبه عندي من المغريات، ولكن لم يجد لدي لحسا. فأراد أن يسهل على الأمر، فاقترح أن يعدني بجهاز تسجيل، وما على الا أن أضعه أمامي وأتكلم. فلما تصورت نفسي على هذه الصورة قلت لابد أن أكون قد جننت لأجلس هكذا وحدي أتكلم أمام صندوق كهذا!.. لا. لا يمكن. فالذكريات ترد على ذهني بالمناسبة. وعلى أساس الشيء بالشيء يذكر. فذهني بحيرة راكدة. لابد أن يلقى فيها حجر لتنداح موجات من الذكريات. والحجر متى يلقى؟.. ومن يلقيه؟.. لست أدري.. ربما الظروف.. وربما جليس أنيس..

ولقد لاحظ قارىء فطن أن مقالاتي الأخيرة تحوي نتفا من ذكريات قديمة عن حوادث وأشخاص. فمضى لو استمر هذا، وتمنيت أنا أيضا لأحقق به رغبة طلاب الذكريات، دون أن أتكلف الجلوس إلى صندوق تسجيل. ولا بأس من تخير ما يجعل منها صورا حقيقية على النفس. ونفسي أنا اليوم على الأخص..

ومادام الشيء بالشيء يذكر. فقد لحت باقة ورد فخطرت لي أوراق الورد. فجرت الذاكرة إلى الأديب الشاعر مصطفى صادق الرافعي..

ومعرفتي بالمرحوم «مصطفى صادق الرافعي» نشأت في حجرتي بوزارة المعارف يوم كنت في الثلاثينيات مديرا لإدارة التحقيقات بها.. وكان لهذه الإدارة اتصال مباشر بجميع فروع الوزارة وموظفيها. وكانت صلتي وثيقة بالمرحوم محمد بك العشماوي وكيل الوزارة لأنه قانوني من أساتذة كلية الحقوق، وأنا مثله من رجال القضاء. فكان رجال التعليم يرون فينا نحن الاثنين عنصرا دخيلا على وزارتهم، كما جعلنا نخفف من غربتنا بيننا بالتساند. وقد نفع هذا التساند في مساعدة من قصدني من ابناء ذلك العصر. وجاءني بالفعل صادق الرافعي ومعه شاب نخرج حديثا في كلية دار العلوم يرغب في تعيينه مدرسا للغة العربية في مدارس الوزارة. فكلمت في ذلك مراقب التعليم الابتدائي المرحوم الحسيني بك مصطفى. فقال لي إن الوزارة لا تعين المتخرج حديثا، وإن عليه أن يشتغل في أول الأمر بمدرسة أهلية تحت رعاية الوزارة، ثم يظل إليها بعد ذلك. وهو يتعهد لي بهذا الأمر. فقبل الشاب.

وكان هو المرحوم «محمد سعيد العريان»... ثم جاءني الرافعي يخبرني أن له ابنا تخرج طبيبا في جامعات الخارج. ويود تعيينه ضمن أطباء مدارس الوزارة. فوجدت المسألة صعبة. لأن كبير الأطباء سبق أن شكا لي من مناقشته مع أطبائه لأنهم جميعا متخرجون في انجلترا في حين أنه هو الوحيد المتخرج في فرنسا. وعزم على عدم تعيين أحد من الخارج. فنصحه بأن يعين المتخرج في فرنسا ليتألف فريق متجانس معه.. فقال: «ومن اين أجد في الطب المتخرج في فرنسا؟.. الجميع في الطب يتخرجون في انجلترا».. فسألت الرافعي عن ابنه فقال في يأس: «طبعا هو متخرج في انجلترا» فإذا به يقول: «لا أبدا.. بل في فرنسا».. فصحت في الحال: «المسألة حلت»... وقد حلت بالفعل وصار الرافعي يزورني. وكان الحديث معه عسيرا. لأن الصمم عنده كان كاملا. فكنا نستخدم الكتابة. إلى أن علمت أن المرحوم عبد الرحمن صدقي وكان موظفا بإدارة الامتحانات يستطيع أن يحادث الرافعي مباشرة بدون كتابة. والرافعي يفهم كلامه بمجرد النظر إلى حركة شفتيه. فكنت كلما حضر الرافعي أطلب مترجمه صدقي. حتى فتح رئيسه مدير الامتحانات الدمرداش بك وكان رجلا حازما شديدا. فاضطررنا إلى نقله من عنده إلى إدارة الفنون الجميلة. وقد لبث بها حتى عين وكيلا لدار الأوبرا.

وكان صدقي اديبا وشاعرا رقيقا فكان الحديث بينهما ممتعا. واستطاع عبد الرحمن صدقي بلباقته أن «يدحلب» الرافعي إلى الكلام عن الحب ورسائل الورد. فإذا به يطرب ويعترف بأنه غارق في الحب. واخرج من جيبه صورة فتوغرافية لامرأة جميلة يصفها لنا قبل أن يطلعنا عليها.. بأنها الوردة التي تكفي نضارتها ويكفي ارجها لنشر الربيع الدائم في صحراء العمر.. وانتقلنا إلى خطف الصورة من يده ليصيبنا من هذا الربيع ولو قطرة أو نفحة أو نسمة. وهو يدل علينا بدلال من في يده مفاتيح الجنة. وأخيرا تناولها من يده عبد الرحمن صدقي. ونظر فيها وضحك ضحكة خبيثة فهمت معناها. وما ان انصرف الرافعي حتى قال صدقي إن المرأة التي في الصورة لا تدخل مطلقا في باب باقة الورد. ولكنها تدخل في باب «كياس القطن»!.. وأعدنا التحدث في أذواق الحين. وفي أن الحب هو الذي يجمل الأشخاص والأشياء. ولقد جاء فيما قرأنا من كتب قديمة.. أن مجنون ليلى بعد أن وصف ليلاه بالجمال الذي صار مضرب الأمثال، بغض بعض معاصريه إلى تحري الأمر والنظر إلى ليلى فلم يجد فيها الجمال الموصوف. إنما رأى فتاة عادية. فتكلم في ذلك فقالوا له: يجب أن تراها بعين المجنون وليس بعينك.. وكان زكي مبارك قد ألف كتابا يومئذ عن حبيبة له في العراق يوم كان منفيا عنوانه: «ليلى المريضة في العراق» فلم يخطر في بال أحد ممن نعرفه أن يراها ويصفها لنا.. فقد كانت مبالغات زكي مبارك لا تقل عن مبالغات المجنون في وصف ليلاه.. وكان علينا أن نقرأه ونستمتع بكتابته دون أن نصدقه. وأذكر أنه في ذلك الوقت كان مطرودا من الجامعة. وينسب ذلك إلى خصومته مع طه حسين. وقد حاولت مع من حاول أن تعيده إلى الجامعة. وكلمت بالفعل صديق وكيل الوزارة محمد بك العشماوي.. فلم يستطع. وقال إن زكي مبارك اغضب الجميع. وبظهوره كانت له هذه الخاصية: ان يخاصم الجميع. وان لم يخاصم فهو يشاغب. ولكنه مع ذلك ظريف ظريف.

وكان يقول إن طه حسين دكتور واحد . أما هو فدكاترة لأنه حصل على أكثر من دكتوراه . وإنه إذا جاع أولاده بعد أن أقصى عن الجامعة بسبب طه حسين فإنه سيطعم أولاده من لحم طه حسين . . وخاصم أيضا أحمد أمين الأستاذ بكلية الآداب وعميدها فيما بعد . . بأن كتب فيه سلسلة مقالاته : « جناية أحمد أمين على الأدب العربي » ردا على مقالات أحمد أمين التي كان قد نشرها بعنوان « جناية الشعر الجاهلي على الشعر العربي » . . ويشبه زكي مبارك في إبعاده عن الجامعة صديقا آخر . عرفته وصاحبته في باريس أوائل العشرينات . وهو الدكتور محمد صبري الشهير بالسوربولي . .

فهو أيضا قد أغضب كل رجال الجامعة بقوله المأثور إنه هو الوحيد الحاصل في مصر على دكتوراه الدولة . بينما طه حسين ومنصور فهمي وبقية الدكاترة لم يحصلوا إلا على دكتوراه الجامعة . وهي ليست في مستوى دكتوراه الدولة الحاصل هو عليها . وكان من نتيجة ذلك أنه لم يظفر بكرسي التاريخ . مع أنه مؤرخ ممتاز . وعمل في دار الكتب ولم يظفر كذلك بمنصب المدير . وقد حاولت كذلك اقناع صديق محمد بك العشماوي بمساعدته فلم يتمكن . فقد كان صبري السوربولي رحمه الله يتمتع رغم كفاءته بخشونة منفرة . وقد حكى لي مرة عن « بيرم التونسي » الذي كان منفيا وقتذاك في باريس . . انه يجيد طهو الطعام إجادة تامة . فدعاه إلى شقته وادخله المطبخ واحضر له لحما وحضرا . وكلفه باعداد وليمة لجماعة من أصدقائه الفرنسيين . . فلما فرغ بيرم من الطهو وإعداد الوليمة على أحسن وجه . قال له صبري « متشكر » وصرفه دون أن يدعوه . . وكان بيرم يحب نفسه بأكلة دسمة . وهو الشريد الطريد المعدم الذي كان يعمل طول يومه بفرنكات معدودة في حمل براميل البيرة . خرج يسب ويلعن . . وفي الأعوام الأخيرة كان ينضم إلى ندوتنا صبري السوربولي في قهوة « بيترو » كل صيف في الإسكندرية . ويطلب طبقا من السمك يقتصه بيديه . فإذا حضرت بعض بسلم يديه الذين شبع بها تقبيلا في السمك . . وراحته تزكم الأنف . فإذا تباعدت شكا من أني لم أرحب بوجوده . . وهذا غير صحيح . فنحن لا نرحب فقط بالسمك الذي يلطخ يديه ويعدها ليسلم بها علينا . . رحمة الله عليه . . فهو لم يظفر بحظه الكامل في حياتنا الأدبية . شأنه في ذلك شأن زكي مبارك . على الرغم من أن الاثنين قدما راسخة في الأدب العربي ودراساته . . وكاد يلحق بهما عباس محمود العقاد لخشونته وكثرة خصومه . لولا شخصيته الطاغية وشكيمته القوية . فاستطاع أن ينتزع حظه الكامل من بين أنياب الذئاب . . وكانت بيننا دائما مودة ومحبة . لأني عرفت أن طبعه الخشن ليس طبعا متأصلا . انما هي طريقة دفاع ضد الذين يتعمدون التهوين من شأنه والتخفيض من قدره . انما هو في داخله اللين والرحمة . فهو يبكي على كلب صغير فقده . وامتنع عن الزواج لأنه لا يحتمل أن ينجب ولدا يراه ذات يوم مريضا . . وهو كريم لا يعرف البخل . . قبض ذات يوم عشرين جنيها مكافأة على عضوية لجنة أدبية كان من المشكين فيها مع المازني ومعي . وقبض كل منا ذات المكافأة . ولكن المازني طلب من العقاد أن يلغي مكافأته في لجنة يعدها لنا . ففي الطلب

د . زكي مبارك

في الحال دون أن يناقش أو يساوم أو يسأل لماذا هو الذي يلغي مكافأته علينا . ونحن لا نفكر في مساهمة بقرش . وفي جيوب الزميلين الجنيهات العشرون لكل منا ناعمة في خير وسلام . . وضع العقاد على المائدة في بيته ليس ديكا روميا واحدا . بل ديكين . والله ! . . كان ذلك في أواخر الثلاثينات فيما أذكر . . وكان رحمه الله ذا رجولة وشهامة في الدفاع عن أصدقائه . . كان يقول إذا سمع من يتصدى بأذى أحب المال وأغلى في طلبه . إني أطلب المال مشروطي . ويقصد بالشروط الكتابة كما أشاء وقتما شاء . ويقال إنه كان يبالغ في الاعتداد بنفسه . ويشاع أن وزيرا من الوزراء أبلغه عن طريق مكتبه أنه يريد مقابلته في الساعة كذا . . فلما جاءت الساعة جلس ينتظر في صالون منزله زيارة الوزير . فلم يحضر الوزير بالطبع لأنه هو الآخر كان ينتظر العقاد في مكتبه . . كما أشيع أنه ما كان ينتظر أحدا اكثر من دقيقة واحدة عن الموعد المحدد . فإذا لم يحضر انصرف عنه ولا يقبل اعتذارا مهما يكن شأن الشخص أو الموضوع الذي جاء من أجله .

ولست أظن ذلك كان يحدث مع أصدقائه الأعزاء . فإني أذكر أنه حدد لي موعدا في قهوة « سولت » لمجرد حديث غير ذي بال . . فحضرت متأخرا ووجدته جالسا وحده إلى مائدة ينتظرني . فلما اقبلت عليه استقبلني بشاشة وبادرني بقوله « لو كنت حضرت قبل خمس دقائق لرأيت معي عجبا على المائدة المجاورة : كان عليها عاشقان يتحدثان حديثا مهما » . . قلت :

– مادام مهما فلابد أن يكون عن محاورات الفلاسفة ومطالعات في الكتب . .

فضحك مقهقها وقال :

– بل عن جوارب السيدات !

وجعل يسرد علي أشياء مهمة جدا في المجتمع وقتذاك لا نشرى عنها شيئا نحن الأدباء ! . . فقد كنا في زمن الحرب في عام ١٩٤١ بالتقريب . وكانت جوارب السيدات نادرة . ويكفي أن يمزق جورب سيدة لتعتبر ذلك كارثة . وكانت أزمة الجوارب للمقبلين على الزواج في أغلبية أزمة السكن اليوم . . وكان يقال لنا بالفعل إذا عزمتم على الزواج فضعوا في ميزانيتكم جوارب زوجاتكم . فكنا نجيب بقولنا : الحمد لله الذي وقانا من التفكير في الزواج ! . .

وفي الزواج كان عجيبنا الذي يعرف شئون الزواج هو صديقنا المازني . ولكن « الحرمة » ويقصد بها دائما زوجته لا تفاتحه في هذه الأمور فيما يظهر . . فقد كان شغله الشاغل في ذلك الوقت سيارة اشتراها وبسرقها بنفسه . . ولابد أنها كانت « نصف عمر » أوشيفا كهذا . فقد دعاني ذات مرة إلى ركوبها . وكان اليوم ممطرا . فما ان سارت قليلا حتى توقفت . ونزل المازني منها وأخذ في الزق . حتى عرق ففال لي :

– انزل وزق معي . . الله يسترك ! .

فسألته :

– ما هي ماركة هذه السيارة ؟

قال :

– كما ترى ماركة « الي يحب النبي يزق » ! . .

قلت :

– صحيح . . ولو كنت أعرف هذا المصير في اليوم المطير . . . ! . .

وأخذ يمسح وجهه من بلل المطر ويقول :

– حتى يصدق علينا المثل : « وزاد الطين بلة » ! . .

ورجعنا نزق معا هذه السيارة . وكانت كبيرة الحجم . والمازني كما تعلم صغير الحجم . فقلت له :

– ولماذا لا تكون سيارتك في مثل حجمك ؟

فقال :

– الوجاهة ! . .

قلت :

– ولماذا السيارة على الإطلاق ؟ . .

قال :

– روح العصر ! . .

قلت وأنا أمسح عرقي الذي سال غزيرا من الزق :

– روح العصر طلعت روحنا ! . .

ولم يقلنا الا بعض المارة . رأوا ورطتنا وسوء حالنا فجاءوا يعاونوننا في الزق . حتى نجحوا هم أيضا . فقالوا :

– كان ضروري تركبوا دي ؟ ! والموتوجل ماله ؟ ! .

فقلت لهم :

– روح العصر ! ! . . ردي المرة الأولى والأخيرة اركبها ! . .

ويظهر ان المازني باعها بعد ذلك وتخلص منها . لأني لم أرها معه بعد ذلك اليوم . .

ولكن المازني مولع بالحديد . فما لبث أن اشترى آلة كاتبة . وتعلم الكتابة عليها . وصار يكتب مقالاته بها . مثله مثل الكتاب الأمريكان ؟ . . ولم أره منذ ذلك التاريخ . إلى أن جاء عام ١٩٤٩ وكنت قد سافرت للتصييف في باريس . وكان هناك أيضا طه حسين . فجاءنا الخبر المفجع أن المازني قد توفي . ولم يكن قد جاوز الستين . فهزتنا المفاجأة . وحزنا عليه حزنا شديدا . . رحمه الله رحمة واسعة . فقد كان خفيف الظل . وما من مرة قابلناه الا أشاع فينا المرح والبسمة وحب الحياة . .